التطور الاقتصادي لسكان بلاد الرافدين (3500-650 ق.م)

د : فاطمة أبو القاسم السعداوي *
كلية الآداب والعلوم بدر ، جامعة الزنتان ، ليبيا
Fatima.alsaedawi@uoz.edu.ly

تاريخ الارسال 2025/7/5م تاريخ القبول 2025/8/8م

Research Title the Economic Development of the Inhabitants of Mesopotamia (3500-650 B.C)

Dr.Fatima Aboulqasim Alsaedawi
Faculty of Arts and Sciences, Badr Campus-University of Zintan

Abstract:

The inhabitants of Mesopotamia relied on advanced irrigation systems that enabled them to transform clay lands into fertile fields, turning a complex geographical environment with erratic climate into an attractive environment that contributed to the civilizational development of the region. Economic activities evolved from mere traditional agriculture to an integrated system encompassing agriculture, industry, and trade. The population began to rely on irrigation systems that provided continuous water supply. Thereby increasing the production capacities of grains, vegetables, flax, and other crops. This led to the emergence of industrial activities represented in pottery, textiles, and household tools. Over time, traders transported these products via rivers using boats to internal markets, and then external trade expanded to regions such as the lndus Valley, Egypt, and Anatolia. Temples, palaces, and markets, were established, paving the way for the emergence of the first cities. Thus, the economy of Mesopotamia was the fundamental driving force behind the establishment of an advanced civilization that included agricultural, industrial, commercial, intellectual, and administrative aspects. These cities became thriving centers of leadership.

حقوق النشر © للمؤلف/للمؤلفين 2025. ينشر هذا البحث بموجب رخصة المشاع الإبداعي Creative Commons (CC BY-NC 4.0)

Keywords;
Economic development, Mesopotamia, population, agriculture, industry, trade.

ملخص البحث:

اعتمد سكان بلاد الرافدين على أنظمة ري متقدمة مكنتهم من تحويل الأراضي الطينية إلى حقول خصبة، ومن بيئة جغرافية معقدة ومناخ مضطرب، إلى بيئة جاذبة أسهمت في عملية البناء الحضاري للمنطقة، فتطورت الأنشطة الاقتصادية من مجرد زراعة تقليدية، إلى منظومة متكاملة تشمل الزراعة والصناعة والتجارة؛ فبدأت باعتماد السكان بشكل أساسي على نظم الري التي وفرت المياه بشكل مستمر، مما رفع قدرات إنتاج الحبوب والخضار والكتان وغيرها من المحاصيل، ومن خلال ذلك انبثق النشاط الصناعي الذي تمثل في صناعة الفخار والنسيج والأدوات المنزلية، ومع مرور الوقت نقل التجار تلك المنتجات عبر الأنهار؛ باستخدام القوارب إلى الأسواق الداخلية، ثم توسعت التجارة الخارجية إلى مناطق مثل وادي السند ومصر وبلاد الأناضول. كما أنشأت المعابد، والقصور، والأسواق، ما مهد الطريق لظهور أولى المدن، وهكذا كان الاقتصاد في بلاد الرافدين هو المحرك الأساس الذي دفع باتجاه نشوء حضارة متقدمة تشمل أوجه زراعية وصناعية وتجارية وفكرية وإدارية، ومع تطور الكتابة والتوثيق، أصبحت تلك المدن مراكز قيادة مزدهرة.

الكلمات المفتاحية:

التطور الاقتصادي، بلاد الرافدين، السكان، الزراعة، الصناعة، التجارة

المقدمة:

مرت حضارة بلاد الرافدين كغيرها من الحضارات القديمة، بالمراحل التاريخية المختلفة، التي انتقل فيها الإنسان القديم من الحياة البدائية؛ من جمع وانتقال إلى إنتاج واستقرار، وظهرت حضارتها شمال شرق البحر الأبيض المتوسط على ضفاف نهري دجلة والفرات، وقد ساهمت خصوبة الأرض إضافة إلى موقعها، الذي أثر في سير تاريخه، وكذلك في أهميته الاستراتيجية والتجارية، فهو يعد ملتقى للطرق العالمية، فتوافدت شعوبا كثيرة عرفوا بالسومريين، والكلدانيين، والبابليين، والأشوريين، وأقامت تلك الشعوب عدة تنظيمات سياسية، فظهر نظام حكم دول المدن، ثم الإمبراطوريات، التي تعتمد على نظام حكم مطلق. كما شهدت بلاد الرافدين تطورا كبيرا في المجالات الفكرية والسياسية والاقتصادية أثر بشكل كبير في

الحضارات التي عايشتهم أو التي جاءت بعدهم، فقد بدأ التطور الاقتصادي في بلاد الرافدين بتأسيس منظومة زراعية متطورة؛ نشأت على ضفاف نهري دجلة والفرات، فقامت تلك الشعوب بحفر قنوات الري وبناء السدود، ما أدى إلى تحويل مساحات واسعة من الأراضي الجرداء؛ إلى حقول منتجة، فيما أسهم الفائض من الإنتاج الزراعي في توفير الغذاء لكافة شرائح المجتمع، كما زاول السكان حرف مهنية أخرى غير الزراعة كالصناعة والتجارة والعمارة وغيرها، فظهرت المعابد والقصور؛ التي أضحت مراكز إدارية واقتصادية، تولت مهام تنظيم توزيع الحبوب، والإشراف على البنية التحتية، ما مكن من تأسيس أنظمة مبنية على التخطيط والإدارة، وبهذا النسق المتكامل استطاعت المجتمعات في بلاد الرافدين تطوير الكتابة لتكون أداة لحفظ السجلات والمعاملات، مما وفر وثائق قانونية لحماية الحقوق، وتسهيل العملية التجارية، ما أدى إلى تطور الفنون والعلوم كنتيجة طبيعية للاستقرار الاقتصادي.
وسنتحدث في هذا البحث الموسوم ب (التطور الاقتصادي لسكان بلاد الرافدين من 3500-650 ق.م) عن التطور الاقتصادي لهذه الشعوب وسبقها في المدنية والحضارة.

إشكالية البحث:

تظهر إشكالية البحث في الوصول إلى معرفة مدى إسهامات البيئة الجغرافية في التطورات الاقتصادية والحضارية للسكان في بلاد الرافدين على مر الأزمنة التاريخية – فهل أثرت البيئة الجغرافية لمنطقة بلاد الرافدين في الحياة الاقتصادية للسكان؟ يقودونا ذلك إلى طرح التساؤلات التالية للوصول لإجابات شافية من خلال هذا البحث.

التساؤلات

س1_كيف أثرت البيئة الجغرافية في حياة الإنسان القديم في بلاد الرافدين؟
س2-هل حدث تغير في مناخ بلاد الرافدين منذ ذلك التاريخ إلى الآن؟
س3-كيف استطاع الإنسان القديم في بلاد الرافدين مواجهة قوة الطبيعة؟
س4-هل تمكن الإنسان القديم من قهر الصعوبات التي واجهته وبناء أعظم الحضارات الإنسانية؟
س5-كيف تطور الاقتصاد في بلاد الرافدين؟ وهل أسهم النمو والتطور الاقتصادي في الإنتاج الحضاري لبلاد الرافدين؟

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى معرفة مدى قدرة الإنسان القديم في بلاد الرافدين، على التغلب على الصعوبات البيئية وتطوير حياته الاقتصادية.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في معرفة أثر الظروف البيئية الطبيعية في حضارة سكان بلاد الرافدين وكيفية التغلب على الصعوبات التي واجهتهم، والأسباب التي أدت إلى التطور الاقتصادي في تلك المنطقة.

أسباب اختياري للموضوع

رغبتي في معرفة الأسباب والظروف التي قادت الانسان القديم في بلاد الرافدين لبناء سرح حضاري عظيم؛ يعد من أهم المعالم الحضارية في العالم القديم، كانت هي السبب في اختياري لهذا الموضوع.

الحدود الزمنية والمكانية:

الحدود الزمنية للبحث فكانت من 3500ق.م إلى 650 ق.م. **أما الحدود** المكانية فهي بلاد الرافدين (العراق).

المنهج المتبع:

اتبع الباحث في هذا البحث المنهج التاريخي الوصفي والتحليلي للوصول إلى النتائج المطلوبة.

تم تقسيم البحث إلى محورين:

المبحث الأول: نبذة عن الظروف البيئية والمناخية وأثرها في الحياة الاقتصادية لسكان بلاد الرافدين.

المبحث الثاني: تطور الحياة الاقتصادية في بلاد الرافدين.

الدراسات السابقة:

تطرقت العديد من الدراسات السابقة إلى الموضوع الاقتصادي في حضارة بلاد الرافدين، فيما تنوعت هذه الدراسات بين العربية والأجنبية، وسنعرض بعض من الدراسات التي تمت الاستفادة منها وهي على النحو الاتي: **المصادر:** 1-بليني، الكتاب الخامس من التاريخ الطبيعي (وصف افريقيا ومصر وغرب اسيا)، ترجمة محمد المبروك الدويب، ط.2، 2019م، منشورات مركز المناهج التعليمية

والبحوث التربوية بوزارة التعليم-ليبيا، 2-سترابون الكتاب السادس عشر ترجمة-محمد المبروك الدويب، منشورات جامعة بنغازي، 2003،
المراجع العربية: طه باقر كتاب مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط.1،2، 2009،2012، ج2، منشورات دار الورق للنشر، بيروت-لبنان، 2-أحمد سوسة، تاريخ حضارة وادي الرافدين-في ضو مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الأثرية والمصادر التاريخية، ج2، د.ن.
المراجع المترجمة: ستيون لويد، آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي، ترجمة: محمد طالب، منشورات دار الشام، 1992-1993م، 2-سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ترجمة: يعقوب بكر، منشورات دار الرقي، بيروت-لبنان، د.ن، 3-ما تقييق، أ سازونوف، حضارة ما بين النهرين العريقة، ترجمة-حنا أدم، مطبعة دار المجد، دمشق، 1986م. 4-هنري جميس، انتصارات الحضارات-تاريخ الشرق القديم، ترجمة-أحمد فخري، مكتبة الانجلو، د.ن. وكانت الاستفادة كبيرة من هذه المصادر والمراجع، فقد دعمت البحث بمعلومات وفيرة، لا سيما وان جلها يتحدث عن نواحي عدة قد تتطرق لها البحث في موضوع التطور الاقتصادي لبلاد الرافدين، إضافة إلى المراجع الأخرى التي لا تقل أهمية عن التي تم ذكرها.

المبحث الأول:

نبذة عن الظروف البيئية والمناخية ومدى تأثيرها في حياة سكان بلاد الرافدين:

تكيف تاريخ وحضارة السكان في بلاد الرافدين بالأحوال الطبيعية لبيئتهم، وحددت سير التاريخ. فنمت دول في مدار جغرافي قدر لها وحدة دائمة، أو انقسام أبدي، انعكس ذلك على حضارتها، واستمدت منه نواحي قوتها وضعفها. **فكيف أثرت الظروف البيئية في حياة السكان في بلاد الرافدين؟**

إن الاجابة على هذا التساؤل تقودنا للتعرف على جغرافية بلاد الرافدين، أما مصطلح بلاد الرافدين فقد ظهر فيما بين القرنين الرابع والثاني ق.م ميزوبوتاميا (Mesopotamia) عند اليونان والرومان، وهو اسم قديم يدل على خلفية تاريخية، إلى جانب دلالته على المنطقة الجغرافية التي يعنيها (1)، وقد استعمله استرابوا (Strabo) للدلالة على المنطقة الواقعة بين النهرين؛ بينما أطلق اسم بلاد بابل على المناطق الجنوبية (2). أما بليني(bliny) فقد مد حدودها إلى الخليج العربي وجعلها مكافئة تقريبا للعراق الحديث (3).

تميزت أرض بلاد الرافدين باختلافها عن بعضها، من سهول رسوبية إلى هضاب وبواد ونجاد ومناطق جبلية وشبه جبلية أو متموجة (4)، وهذا التباين كان سببا في عدم تحديد الوحدة الجغرافية للبلاد. وخصوصية المناخ خلقت نمطا متميزا في حياة السكان القدماء. فهي تتكون من منطقة واسعة، قليلة الانخفاض تتجه ابتداء من الخليج العربي، وتعد امتداد له، ومن الصعب تحديد حدودها فهي تتطابق في الشمال مع التلال الإيرانية، وفي الغرب مع أطراف الصحراء ما يعرف ب (الهضبة العربية)، أما الخط العمودي الذي يمر بين هيت على نهر الفرات وسامراء على نهر دجلة هو الذي يشكل الحدود العليا للسهل الطموي، والى الشمال من هذا الخط توجد هضبة كلسيه تسمى الجزيرة تفصل بين النهرين. وينبع نهري دجله والفرات من بحيرة (هازارغولو) الصغيرة الواقعة على بعد (100) ميل إلى الغرب من بحيرة (فان) ويتدفقا نحو الجنوب والجنوب الشرقي إلى نجود نينوى وأشور. ويعد الفرات أطولهما (2000) كم، أما نهر دجله فيصل طوله (1418) كم (5).

استوطنت الشعوب القديمة في بلاد الرافدين السهل الرسوبي في الجنوب ما بين الألفين السادس والخامس ق.م، **فهل كانت أحوال بلاد الرافدين الطبيعية كما هي عليه الآن؟** يذكر: (طه باقر) ان الأدلة الجغرافية والأثرية تشير إلى انه لم يطرأ أي تغير أساس في أحوال البلاد المناخية منذ ذلك التاريخ وحتى الآن (6). كما يؤكد ذلك (سيتون لويد) وفقا لاكتشافات الجيولوجيين بعدم تبدل المناخ منذ زمن طويل جدا. والتباين المناخي بين الصحراوي الحار، والمعتدل، يجعل الحرارة ترتفع في المناطق الجنوبية، عنها في المناطق الأخرى، فالمناطق الجبلية تأخذ مناخ البحر المتوسط المعتدل صيفا وشتاء، أما الأمطار فهي تتراوح بين 40-100سم سنويا، ويسود المناخ الصحراوي منطقة السهل الرسوبي والهضبة الغربية، والأمطار تصل نحو 5-20 مم، أما السهوب فمناخها متباين بين الصحراوي الحار في الجنوب، والمعتدل في الشمال (7)، ونظرا لقلة سقوط الأمطار ونزولها المتقطع من خلال عواصف ممطرة متقطعة في فصل الشتاء؛ ما تسببا في قفر الأرض. أما الأنهار فلا تتغذى بالمياه ألا في فصل الربيع عندما تذوب ثلوج جبل طوروس وزاغروس (8). وتتسبب بالفيضانات التي تعود في الكثير من الأحيان بكوارث بيئية.

انطلقت العلاقة بين البيئة والحياة الاقتصادية في بلاد الرافدين من الحاجة إلى التكيف مع جغرافية معقدة تتخللها الأنهار والمستنقعات، ومناخ مضطرب، ما اضطر السكان لمواجهة هذا النظام المناخي المضطرب من أمطار قليلة، ومياه أنهار متركزة في القاع خلال معظم فصول السنة. ومع فصل الربيع تذوب ثلوج الجبال فتؤدي لزيادة المياه التي تتسبب في فيضانات مباغتة، تصيب الأرض المزروعة بأضرار بالغة. ولذلك اجتهد السكان لتذليل هذا الخطر المائي الكارثي وتحويله إلى مصدر رخاء (9)، عن طريق إبداعهم لنظام ري معقد غاية في الدقة، من الأقنية والخزانات والسدود وبوابات للتحكم والتصريف(10)، لاستقبال مياه الفضيان وتوزيعها بنظام محكم (11) مثل سد (نمرود) الذي يعد أضخم مشروع عرفه التاريخ القديم، وهو السد الترابي الذي أقيم على نهر دجلة جنوب سامراء، والدليل على ذلك ما فعله البابليون باستخدامهم منخفضي الحبانية وأبي دبس لتصريف مياه الفرات الطاغية في موسم الفيضان، وكذلك ما يؤكد اهتمامهم بنظام الري ما جاء بشريعة حمو رابي من قوانين صارمة فيما يتعلق بشؤون الري والزراعة (12)، وكانت الأهواز والمستنقعات تسيطر علي مساحات واسعة من الأرض، وملوحة التربة تزداد بعد كل فيضان؛ لذلك عملت الشعوب القديمة للتغلب على هذه المصاعب، فجففت المستنقعات، وغسلت التربة للتقليل من ملوحتها (13). لكي تنعم تلك الشعوب برغد العيش، وكان ذلك يتطلب استغلال كل الإمكانيات، من تعاون جماعي وتحكم في شبكة القنوات المائية؛ وهكذا تكونت وحدات زراعية مستقلة، بعد ان انقسمت دلتا الفرات إلى عدة أقسام، وتمتعت كل وحدة بمركز إداري خاص، وشبكة ري؛ وبالتالي ارتبط نمو دول المدن السومرية في جنوب العراق بالبيئة الجغرافية (14)، أما المناطق الشمالية الجبلية فكانت تعتمد على الأمطار في زراعتها، وتعد من أهم مصادر المياه عند الآشوريين (15)،

استقرت الجماعات البشرية جنوبا بين نهري دجلة والفرات، واستطاعوا بناء شبكة ري دقيقة مكنتهم من تحويل الأراضي الطينية إلى حقول خصبة، مما أسفر عن فائض غذائي وفر قاعدة أساسية لظهور تقسيم اجتماعي للعمل، فظهرت فئات تمتهن حرف أخرى كالصناعة والتجارة. وقد أدى ذلك التنوع في الحرف إلى قيام تجمعات سكانية مستقرة حول المعابد ومصادر المياه، فبدأت تتشكل المراكز الحضرية، وهكذا بدأت تتكون لدى السومريون تدريجيا أسس تكوين الدولة، ومع

نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، تم تكوين ما يقارب من عشرين دويلة، على الأراضي التي قطنوها، وفي الربع الأول من الألف الثالث قبل الميلاد بلغ عددها نحوا أربعين دويلة منها: الوركاء، وجمده نصر، أريدو، أور، لإرسا، شورِيباك، كيش، أوروك، لا غاش، نيبور (16).

تمكن سرجون الأول (2371-2316أو 2334-2279 ق.م) من القضاء على سومر، ثم قام بتوحيد سومر وأكد وأسس أول امبراطورية في تاريخ العالم، وشملت إمبراطوريته معظم أقسام الهلال الخصيب، وبلاد عيلام وجزءا هاما من آسيا الصغرى إلى البحر المتوسط، كما ضمت بلاد آشور وما حولها شمالا، وبلاد الكوتيين، إضافة إلى سيطرته على أشهر الموانئ الفينيقية وبلاد الشام (17)، وقد توالى على حكم بلاد الرافدين عدد كبير من الحكام عبر عهود مختلفة من تاريخ البلاد، وقد ظهرت خلال تلك الفترة الكتابة التصورية، ثم الكتابة على الألواح الطينية والتي عرفت بالكتابة المسمارية، ومما لا شك فيه أن تمركز السكان في مواقع جغرافية معينة تطورت فأصبحت مدن ذات كيانات سياسية، ومع زيادة عدد السكان، وتنوع حاجاتهم المعيشية، أدى ذلك إلى توسع النشاطات الاقتصادية المختلفة كالزراعة والصناعة والتجارة (18).

نستنتج مما سبق أن سكان بلاد الرافدين استطاعوا تحويل بيئة وحشية من الأهواز والأحراش، والمناخ المتقلب، إلى بيئة معطاءة انتشرت شهرتها بين الأمم القديمة، وكان ذلك نتيجة تفاعل الإنسان مع تلك البيئة، وفي المحور التالي سنتعرف على ثمرة هذا التفاعل.

المبحث الثاني:

تطور الحياة الاقتصادية في بلاد الرافدين

استطاع الإنسان القديم في بلاد الرافدين ان يتخطى الطبيعة ويتحداها وينتصر عليها بفضل إبداعه وتطوره الفكري، فوصل بذلك إلى الاستقرار وإنتاج اقتصاده، ثم تبادل ذلك المنتج مع غيره، فعرف بذلك التجارة كما عرف قبلها الزراعة والصناعة. لاسيما وقد تمتع النظام الاقتصادي في بلاد الرافدين القديم بخصائص مميزة جعلته يختلف عن غيره من الأنظمة في العصور القديمة، فقد تأسس على قاعدة زراعية قوية؛ مدعومة بتقنيات ري مبتكرة، فيما شكل الترابط بين القطاعات المختلفة، التي تشمل الزراعة والصناعة والتجارة؛ دورا بارزا في اقتصاد بلاد الرافدين. **فكيف حصل ذلك؟**

1-**الزراعة**:

اعتمد اقتصاد بلاد الرافدين في العصور القديمة على ثلاثة نشاطات أساسية وهي الزراعة والصناعة والتجارة، لا سيما وقد تداخلت تلك النشاطات مع بعضها، باعتماد كل منها على الآخر (19).

امتد تطور الاقتصاد الزراعي في بلاد الرافدين لآلاف السنين، فبعد استقرار الإنسان في تلك المنطقة وبدأ مع تحول نمط حياته من الصيد والتنقل إلى نمط الزراعة المستقرة، والتي شكلت أساس الحضارة، وعماد المدينة السومرية، والتي تميزت بميزتين: هما نظام الري، والمعبد الرئيس (20). فيما شكل تطور النظام الاقتصادي في حضارة بلاد الرافدين مسارا غنيا بالتحولات الحضارية العميقة، بدأت من الزراعة البدائية البسيطة، فقد اعتمد الفلاحون في تلك المنطقة على بذور محلية تم اختيارها بعناية لتتلاءم مع ملوحة التربة وجفاف المناخ، فحققوا من خلالها محاصيل وفيرة في ظروف بيئية قاسية، وتعد الزراعة عند السكان نشاط أساس حيث استفادوا من وفرة المياه في نهري دجلة والفرات، وطوروا أنظمة ري بدائية مكنتهم من إنتاج محاصيل وفيرة، لذا اشتهرت بلاد الرافدين في مختلف عصورها الحضارية بأولوية الزراعة (21). لذا يري هيرودوت أنها من أكثر مناطق العالم القديم شهرة في انتاج الحبوب (22)، ومع أنها بقيت المصدر الأساس للازدهار الاقتصادي، إلا أن التجارة الخارجية التي جاءت في المرتبة الثانية قد أصبحت مصدرا لا يقل عنها في الأهمية. ويرتبط ذلك بفقر البيئة الطبيعية التي نشأت فيها حضارة بلاد الرافدين من المواد الضرورية الأولية (23).

جسدت أعمال الري جانب أساسيا في حضارة بلاد الرافدين وقادت إلى تقوية المنظومة الاجتماعية والسياسية، وشكلت تلك القنوات إنجازا عظيما، عبر عن واحدة من ثلاث أعمال ضخمة أفتخر بها ملوك سومر وأكد وبابل وآشور إلى جانب الانتصارات في الحروب وبناء المعابد. بعد عصر فجر السلالات من عهود الرخاء الاقتصادي المتميز في حضارة بلاد الرافدين، وربما أساسها العلاقة بين خصوبة التربة، وجهاز الري المنظم، بالرغم من مشكلة الفيضان والملوحة (24). فقد أسهمت الفيضانات الموسمية في ترسيب طبقات طينية غنية، فازدادت خصوبة التربة وسهلت زراعتها، ومع التطور التدريجي لأنظمة الصرف وتوسيع القنوات لتخزين مياه الأمطار والفيضانات الموسمية، كل ذلك أسهم في تحويل الزراعة من نشاط موسمي يعتمد على الأمطار إلى منظومة إنتاجية دائمة، لذا تضاعفت

المساحات المزروعة (25)، ما جعل السومريون يعتنون بري الأرض وزرعها فأخرجت محاصيل وافرة من الذرة والشعير والقمح والسمسم والكتان والزيتون والبلح والخضار مختلفة الأنواع، كما ظهر المحراث الخشبي المجرور عن طريق الثيران، المتصل بأنبوب مثقوب لبذر البذور. وقد قاموا بزراعة لمختلف أنواع الحبوب، لاسيما إنه يتحمل ملوحة الماء، أما درس المحاصيل فيتم بعربات كبيرة من الخشب، ركبت فيها أسنان من الظران تفتت القش فيصبح علف للماشية، ويفصل عن الحبوب التي تستخدم في الطعام (26)، كما أستخدم السكان النواعير في رفع المياه إلى حقولهم الزراعية، مستخدمين القوى المائية المتولدة من الشلالات التي أحدثها هبوط قعر النهر في تدوير تلك النواعير الضخمة، وهذا يدل على أن السكان في هذه المنطقة، كانوا أول من اكتشف طريقة استخدام التيار المائي في تدوير الدواليب الضخمة، وبالتالي مارسوا طريقة الإرواء بالرفع منذ أزمان بعيدة ولازالت تستخدم إلى يومنا هذا، ولعل ذك يدل على التطور الفكري للإنسان بتلك المنطقة، والذي ظهر من خلال الإبداع الهندسي الرائع (27)، وتضمن نص مسماري كتب عام (1700) ق.م، وصف لطرق الزراعة البدائية؛ عرف ب (تقويم المزارع السومري) يتضمن إرشادات مزارع لابنه في كيفية تسوية الأرض وبذرها وريها (28)، كما تضمنت الكتابات الأدبية تشبيهات منزوعة من الحياة الزراعية، مثل الذي ورد في كتابات ترجع إلى العصر البابلي القديم، يدلل فيه الكاتب أمه قائلا: " إن أمي مطر السماء ... الماء الجاري الذي يروي أحسن البذور ...الخ" (29)، كما يدل على اهتمام البابليين القدماء بشؤون الري ما خصصته شريعة حمو رابي (1750ق.م) من أحكام كثيرة لتنظيم شؤون الري والزراعة، فيبدوا أن حمورابي أدرك مدى الضرر الناتج عن إهمال شؤون الري(30)، فنص في شريعته على كل مزارع أن يطهر الترعة المارة في أرضه ويحافظ على سدودها، ويقوم بما يلزم من إصلاحات فيها، وإذا انكسرت السدود الملاصقة لأرضه ؛وأغرقت المياه أراضي جاره، فهو المسؤول عن ذلك (31)، وقد أدخل الاكاديون على جنوب الرافدين ما يعرف بالحضارة النهرية؛ القائمة على زراعة الري الدائم (32)، كذلك ما قام به الإمبراطور (سنحاريب) عند توليه الحكم بعد وفاة والده في سنة 750ق.م، ونقله عاصمة دولته إلى (نينوى) التي أنشأ فيها الحدائق الواسعة، وغرس فيها أنواع مختلفة من الكروم جلبها من مختلف الأصقاع التي وصل إليها في حملاته الحربية، وقد كانت محل تباهي له، إضافة

إلى زراعة القطن بعد أن جلبها من بلاد الهند (33)، كما أن سنحا ريب وسع رقعة المنطقة التي مدها بالماء، القريبة من (نينوى) ووزعها على السكان، وزودهم بشتى أنواع الأشجار التي أتى بها من أقصى المعمورة حتى غطت جميع الأراضي الواقعة بين نينوى وتريسو (34)،كما اكتشفت مساحة تقدر بستة عشر متر مربع في أرض حجرية حفرت فيها بإيعاز من الملك (سنحاريب) حفرا عميقة موصولة بأقنية جوفية، ثم ردمت تلك المساحة بتربة صالحة للزراعة، وغرست بالأشجار التي كانت تروى من تلك الأقنية الجوفية (35)، ربما تكون نفس طريقة الري التي تعرف حاليا بالتقطير، كما كان للمعابد دورا اقتصاديا مؤسسيا من خلال تنظيم العقود وتسجيل المعاملات وإدارة المخازن والممتلكات، وقد تولى المعبد مساحات واسعة من الأراضي الزراعية التي استغلها عبر نظام دقيق من العمالة والخدمات فقد احتفظ المعبد بحقوله وأدواته وآلاته الزراعية وورشه ومشاغله الحرفية التي عمل فيها الناس من مختلف الفئات، مهنيين وحرفيين وعمال وأحرار وعبيد. لذا كانت النسبة الأكبر من الأراضي الزراعية للمعبد، كما قام المعبد بتنظيم عمليات الزراعة والتخزين والتوزيع، وكان للقصر (الملك وحاشيته من النبلاء والكهنة وكبار الموظفين) أراضي واسعة، وما بقي منها كانت مجالا للتملك الفردي.

ساعد الطقس الحار والبيئة الملائمة لنمو أشجار النخيل، وتبين النصوص المسمارية وجود غابات للنخيل في بلاد سومر منذ وقت مبكر يعود إلى الألف الثالث ق.م، وكانت تعد محور الحياة الاقتصادية (36). كما استغلوا سعفها، وجريدها في صناعة الأثاث ولوازم الحياة اليومية وقال المؤرخ سترابون إن النخلة تزود البابليين بكل حاجاته(37)، ونظرا لأهمية النخيل في حياة السكان، خصص حمو رابي في شريعته جملة من المواد تتعلق بزراعة النخل، فكانت المادة التاسعة والخمسون تفرض غرامة كبيرة على كل من يقوم بقطع نخلة، وكذلك المادتان الرابعة والستون، والخامسة والستون؛ والتي تحمل الفلاح المسئولية في حال عدم تلقيح النخل(38). إضافة إلى مواد أخرى تتعلق بشؤون البستنة ورعي الأغنام وتأجير الحقول الزراعية، وحرثها ورهنها والاستلاف عليها، كما ساعدة وفرة الإنتاج في ظهور أولى أشكال التبادل الاقتصادي، عبر نظام المقايضة فقد تبادل الفلاحون ما لديهم من حبوب ومنتجات زراعية بمنتجات

الحرفيين كالمنسوجات والاواني والأدوات المنزلية (39). لذا نرى أن الزارعة في بلاد الرافين كانت تعد نشاطا هاما، أسهم في تطور الحياة الاقتصادية.

التجارة:

مثلت التجارة في بلاد الرافدين نقطة مركزية، فقد أسهمت في تطور النشاط التجاري الذي كان احد اسباب انتعاش الوضع الاقتصادي لبلاد الرافدين، وتعد الطرق التجارية عصب الحياة الاقتصادية، لاسيما وأن موقع بلاد الرافدين يعد ملتقى للطرق التجارية الربط بين قارات العالم القديم، هذا ما جعل الملوك يهتمون بحماية تلك الطرق، عن طريق إنشاء حاميات عسكرية، ووسائل للراحة لتأمين حركة القوافل (40)، فقد اعتمدت بلاد الرافدين على شبكة من الطرق البرية ربطتها بمناطق بعيدة، والتي أسهمت في تطوير حركة التبادل وتعزيز الاستقرار الاقتصادي، فقد امتدت علاقات بلاد الرافدين في مجال التجارة الخارجية في عصور ما قبل التاريخ، مع بلدان الشرق الأدنى الغربية؛ بلاد الفرس، وآسيا الصغرى، والشام، ومصر، وبعض أجزاء من البحر المتوسط. نظرا لافتقار المنطقة للمواد الأولية اللازمة لبناء الحضارة، وتركزت الواردات في المعادن والأخشاب والأحجار الكريمة (41)، علاوة على العاج والتوابل والعطور والبخور واللبان، كما ازدهر اقتصاد بلاد الرافدين زمن الدولة البابلية في عهد حمورابي (1792-1750 ق.م) الذي ذكر "أنه جلب الذهب لبلاده كأنه التراب، وجعل جذوع أشجار الأرز تطفو على نهر الفرات كأنها ثعابين"، ويعد هذا القول دلالة رمزية واضحة على كثرة توفيره للذهب وخشب الأرز (42)، بينما شملت الصادرات المنتجات الزراعية والحيوانية. كالحبوب والزيوت، والصدف، والجلود، والمنسوجات، والخمور، والأواني الفخارية، والأختام، فيما أسهم التطور الاقتصادي في بلاد الرافدين في خلق تأثيرات على الحضارات المجاورة من خلال أنماط التبادل التجاري، وتطور النظام الإداري، كما أتاح الفائض الزراعي الكبير للدولة أن تتحكم في الموارد، مما وفر قاعدة أساسية للتجارة الخارجية، واتخذت وسائل التبادل التجاري أشكالا متعددة ساعدت في بناء اقتصاد مرن قابل للنمو، بدأ بأسلوب المقايضة بين السلع، ثم تطور ليصل لاستخدام المعادن الثمينة كوحدة لقياس قيمة تبادل البضائع (43). وقد استخدم لنقل البضائع عبر الطرق البرية عربات تجرها الحيوانات كالثيران، او على ظهور الحمير في قوافل تجوب الصحراء أو الجبال لتصل إلى مناطق مثل الأناضول وبلاد فارس، كما كانت الأنهار والقنوات الداخلية طرقا مائية لنقل السلع بين المدن، فقد استخدمت قوارب مصنوعة

من القصب والخشب لعبور الأنهار، أما السفن الكبيرة فقد استخدمت للوصول إلى الدول البعيد (44). وشجعت فكرة تنظيم الجانب التجاري الدولة على تطوير البنى التحتية كالطرق والموانئ ومستودعات التخزين، ما ساعد في ربط المدن ببعضها، ورفع كفاءة النقل والتوزيع، وقد ساهم كل ذلك في ظهور مراكز حضرية جديدة، فيما ظهر التأثير الحضاري لبلاد الرافدين بانعكاس تلك العلاقات في تطور النظم الاقتصادية للحضارات المجاورة، فبدأت الكثير من الممالك القديمة ببناء نماذج إدارية شبيه بنموذج بلاد الرافدين، لا سيما أنظمة الجباية والتخزين والتوثيق، في مناطق مثل بلاد الشام، ومصر وبلاد عيلام، فيما اعتمدت بعض الحضارات على خبرات بلاد الرافدين في عملية الري وتنظيم الأراضي الزراعية، مما ساعدها في تعزيز استقرارها الداخلي وقدرتها على النمو (45). إضافة إلى مساهمة الحركة التجارية في انتقال السكان بمهاراتهم المختلفة بين المناطق، ما ساعد في تعزيز السلطة المركزية، فقد أصبحت الدولة تفرض الضرائب وتنظم المعاملات، وتعد الضرائب من أهم التدابير التي اتخذتها الدولة في تحقيق أمن اقتصادي للفرد والمجتمع، ومثلت الضرائب مظهرا هاما من مظاهر تطور الحياة الاقتصادية، وهي تعد موردا هاما للدولة قديما وحديثا، لذا شكلت الضرائب أهمية كبيرة عند ملوك بلاد الرافدين، انعكست في تنظيمها، وتخصيص موظفين يحرصون على جبايتها، وقد كان لها أثر بارز في مجمل الحياة الاقتصادية في بلاد الرافدين، وكان المعبد هو المسئول عن جمع الضرائب (46). وما يدل على اهتمام تلك الشعوب بالتجارة والعلاقات التجارية؛ هو أنشأ ميناء لكل مدينة ذات أهمية تجارية على النهر، ويعد الميناء من أهم أجزاء المدينة. فيما ازدهر النشاط التجاري بشكل واسع في العصر البابلي، فقد أصبحت بابل مركز للتجارة في الشرق الأدنى القديم كله وحققت من ذلك ثروة عظيمة (47).

كان تنظيم شؤون التجارة الخارجية من العوامل المؤثرة في سير حضارة بلاد الرافدين وتطورها سوى كان ذلك في التنظيم السياسي والاجتماعي، أو في نشوء الأساليب والطرق الخاصة بالمعاملات التجارية، فظهرت سياسية الدولة المركزية القوية لضمان ازدهارها. كما توحدت دول المدن المتضاربة في مصالحها التجارية، واحتلت الشؤون التجارية مكانا بارزا في أخبار حمو رابي الشهيرة، واشتهار هذه الحضارة بالتنظيمات والمعاملات التجارية (48).

3-الصناعة:

عرف سكان بلاد الرافدين صناعة الفخار، والأواني المنزلية، وهنا يعتقد (فرانكفورت-Frankfort) "أن صناعة الفخار كانت وليدة الصدفة، فحين عرف الإنسان نتيجة الصدفة أيضا إمكانية حرق الأطيان وتصلبها، وسرعان ما نقل مهارته للمادة الجديدة وحقق بها تقدما سريعا"(49)، وتعد صناعة الفخار من أولى الحرف الصناعية التي عرفها الإنسان ببلاد الرافدين في العصور القديمة، لا سيما وقد انتشرت على نطاق واسع لكي تلبي احتياجات السكان، لاستخدامها في طهي الطعام، ونقل وتبريد الماء، إضافة لحفظ السوائل كالزيوت والخمر، وتخزين الحبوب (50) وكما صنعوا الأدوات والآلات الزراعية كالمناجل من الفخار، إضافة لمعرفتهم الحياكة وصناعة المنسوجات. ومع حلول الألف الثالث ق.م ظهرت صناعة القطع الفنية من تماثيل ونصب ومسلات (51). ولقد شكلت الصناعات الفخارية أحد الشواهد الاثرية الهامة في توضيح تطور المجتمعات القديمة في بلاد الرافدين، فقد عكست مدى الإبداع الذي وصل إليه الإنسان في تلك المنطقة، وذلك قبل اكتشاف الكتابة المسمارية، كما أنها كانت بديلا عن الحجارة في المناطق الجنوبية، وقد عرف السكان أنواعا جديدة من الفخار منها أقداح الشراب الأسطوانية والمقعرة، إضافة إلى جرار وسطية ذات قاعدة محدبة الوسط، وكان ذلك خلال الفترة الانتقالية من العصر السومري الحديث، إلى العصر البابلي القديم (2400ق.م)، أما في العصر البابلي الحديث (الدولة الكدية 626-539 ق.م) فقد تميزت صناعة الفخار باستخدام الطين الناعم والألوان الأبيض والأخضر والأصفر بدون زخارف (52)، كما كان النحاس أول معدن استخدمه السكان في بلاد الرافدين منذ العصر الحجري – المعدني، ثم الفضة والذهب والرصاص، وعرفوا صناعة البرونز بخلط القصدير والنحاس (53). وشاع استخدام النحاس في بداية الأمر على شكل أدوات حربية، ثم خضع لعملية صهره مع نهاية الألف الرابع قبل الميلاد في جمدة نصر، وتعد هذه العملية من المراحل المؤثرة في التطور الحضاري، ما أدى إلى إمكانية تصنيعه بأشكال وأحجام عدة، فحقق بذلك قفزة كبيرة في عملية التطور الصناعي (54)، ومن الصناعات (الحرف) المهمة الواردة في الوثائق المسمارية المكتشفة، صناعة الجلود، وبناء السفن التجارية، والبناء، والحصر، والقصب، والحلف. كما وجدت نصوص من عصر فجر السلالات، تشير إلى وجود مشاغل (ورش) متخصصة في المعابد، من ضمنها مشغل للحياكة، فقد عرفت صناعة الغزل والنسيج في بلاد الرافدين منذ القدم، وكان اللباس

أحد متطلبات السكان، فيما كانت بلاد سومر مركزا هاما لصناعة الغزل والنسيج؛ لا سيما الصوفية منها، إضافة إلى الكتان والقطن، وكذلك صناعة الحبال والسجاد، أما صناعة البيرة (الجعة)، الشراب(الخمور) بأنواعها فقد كانت منتشرة في بلاد الرافدين؛ وكانت تستخلص من التمور، والكروم، وهي تعد من المشروبات المنعشة والمفضلة لدى السكان، وتخصصت المرأة في إدارة محلات بيعها (صاحبة الحانة) وتمتع صانعوها بمباركة الآلهة "أنها الآلهة ننغرس (ninkasi) التي تملأ أفواه الآلهة بشراب قوي. وتساعد على نضوج وتحسين جودة الشراب أثناء تخميره. وعندما يصبح جاهزا، تشارك انانا-عشتار نفسها في الشراب" (55). وكانت صناعة الأختام والتماثيل والنقوش على الأواني الفخارية، بمثابة وسيلة لتوثيق الكثير من الظواهر والاحداث لتاريخ بلاد الرافدين، وقد أخذت الأختام الشكل المسطح في الفترات القديمة؛ أي قبل ظهور الكتابة، في دور الوركاء الأخير حوالي 3500 ق.م كما استعملت الأختام الأسطوانية، وهو عبارة عن خرزة اسطوانية تصنع من الأحجار، فيما يعد الختم من الناحية الفنية من اجمل نتاج لفن النقش والنحت في جميع الحضارات، هذا وقد أوضحت التنقيبات في بلاد الرافدين والمناطق المجاورة، بأن الاختام المسطحة عثر عليها في بقايا المستوطنات الحضارية الموغلة في القدم (56).

اشتهر سكان بلاد الرافدين بالصناعات الغذائية، مثل الالبان، وعصر الزيوت، والدبس، وحفظ اللحوم والأغذية، وطحن الحبوب، وكذلك صناعة المنظفات كالصابون مثلا، إضافة إلى صناعة العطور، إلى جانب معرفتهم لصناعة الحلي ومواد التجميل. فيما عرف السكان في بلاد "سومر" و"أكد" صناعة السفن الشراعية؛ لاستخدامها في نقل البضائع، ومن خلال التنقيبات التي أجريت في عدة مواقع من القسم الجنوبي لبلاد الرافدين أظهرت أن بداية ظهور القوارب ترجع إلى فترة أقدم من عصر العبيد (500-400 ق.م)، ولا شك أن ظهور السفن الشراعية أحدث انقلابا في طبيعة العلاقات التجارية في بلاد الرافدين، واستبدل نقل البضائع التي كانت تقوم على الحيوانات إلى السفن الشراعية، إضافة لظهور العربات كوسيلة للنقل البضائع من الموانئ إلى داخل المدن (57).

نستخلص من هذه البحث ان الإنتاج الحضاري عموما ليس وليد عوامل الصدفة، ولا تعبير عن عبقرية يحتكرها شعب دون الآخر، بل هو حصيلة صراع واع للإنسان مع الطبيعة، وكيفية تعامله مع البيئة، وصبره ومثابرته على تحقيق غايته، والدليل

على ذلك ما وصل إليه سكان بلاد الرافدين من تطور اقتصادي أسهم في صنع حضارة من أعظم الحضارات التي عرفها التاريخ الإنساني القديم.

الخاتمة :

ان نشوء القرى والمدن القديمة في بلاد الرافدين، لم يكن ظاهرة فجائية، بل سبقته مرحلتان اتصفت الأولى بتركيز جهود محاولات الإنسان لاستغلال إمكانات وموارد البيئة في محاولة للبقاء، واختراع الأدوات والتوصل إلى بعض الفنون واتساع القرية الزراعية. ويغلب على هذه المرحلة، التفاعل بين الإنسان وبيئته الطبيعية، أما المرحلة الثانية فقد اتصفت بالتركيز على تفاعل الإنسان مع بيئته الاجتماعية وفيها ظهرت باكورة المدن الأولى وصارت دلائل التحضر واضحة، ثم دويلات المدن القديمة الكبيرة، التي أصبحت مركزا لحضارة ظلت شواهدها قائمة إلى الآن. تشهد على عبقرية ذلك الإنسان القديم في مختلف المجالات، فابتكاره لعملية ري معقدة جعلت منه مثالا للتطور الفكري، إلى جانب إنتاجه المتميز في المجالات الاقتصادية كالزراعة، والصناعة والتجارة. والجانب الفكري الذي ظهر في الأدب السومري، والبابلي القديم، تجلى في الموروثات الأثرية التي عثر عليها في تلك المناطق من بلاد الرافدين.

بيان تضارب المصالح

يُقر المؤلف بعدم وجود أي تضارب مالي أو علاقات شخصية معروفة قد تؤثر على العمل المذكور في هذه الورقة

الهوامش:

1-باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط.1، 2، 2009، دار الورق للنشر، بيروت-لبنان، ج2، ص24.

2-سترابون، الكتاب السادس عشر، ترجمة-محمد المبروك الدويب، منشورات جامعة بنغازي 2003م، الفصل الأول، الفقرة 8.

3-بليني الأكبر، الكتاب الخامس من التاريخ الطبيعي (وصف أفريقيا ومصر وغرب آسيا)، ط.2، 2019م، مركز المناهج والبحوث بوزارة التعليم/ليبيا، الفقرة 84، 85.

4-باقر، طه، المرجع السابق، ص 36.

5-لويد، سيبتون، أثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي، ترجمة-محمد طلب، دار الشام، 1992، 1993، ص 19.
6-باقر، المرجع السابق، 27.
7 -باقر، المرجع نفسه، ص 34.
8-موسكاتي، سيتينو، الحضارات السامية القديمة، ترجمة-يعقوب بكر، دار الرقي-بيروت، ص38.
9-موسكاتي، المرجع نفسه، ص 38.
10-لويد، سيتون، مرجع سابق، ص 21.
11-موسكاتي، المرجع السابق، ص 38.
12-سوسة، احمد، تاريخ حضارة وادي الرافدين-في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الاثرية والمصادر التاريخية، ج2، د.ط، د.ن، ص66.
13-جميس، هنري، انتصارات الحضارات-تاريخ الشرق القديم، ترجمة-احمد فخري، مكتبة الانجلو، 158.
14-غلاب، محمد السيد، يسري الجوهري، الجغرافية التاريخية عصور ما قبل التاريخ وفجره، 1968م، مكتبة الانجلو المصرية، ص549.
15-سوسة، احمد، مرجع سبق ذكره، ص 45.
16-ما تفييق، وأ. سازونوف، حضارة ما بين النهرين العريقة، ترجمة-حنا أدم، مطبعة دار المجد، دمشق، 1985م، ص69.
17-سوسة، المرجع السابق، ص 15.
18-كجه جي، صباح اسطيفان، الصناعة في تاريخ وادي الرافدين، 2002م، ص16.
19-كجه جي، المرجع نفسه، ص 16.
20-هار، سأكز، عظمة بابل، ترجمة-عامر سليمان، 1979، ص 27.
21-ل. ارينهايم، نظرة عامة على التاريخ الاقتصادي لوادي الرافدين، ترجمة-مصباح كمال، د.ن، د.ط، ص9.
22-هيرودوت، الكتاب الرابع من تاريخ هيرودوت -الكتاب السكيثي والكتاب الليبي، ترجمة-محمد المبروك الدويب، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، فقرة 198.
23-باقر، مرجع سبق ذكره، ص 41.
24-الاحمدي، سامي سعيد، حضارة العراق، ج2، ص 157.
25-ما تفييق، المرجع السابق، ص57.
26-ديورانت، ول وابريل، قصة الحضارة-الشرق الأدنى، ترجمة-محمد بدران، الجزء الثاني، المجلد الأول، ص 24. 27
27-سوسة، مرجع سابق، ص 17.
28-ديورانت، المرجع السابق، ص 24.
29-لاحمدي، المرجع السابق، ص ص 157، 158.
30-باقر، مرجع سابق، ص 66.

31-سوسة، المرجع السابق، ص 16.
33-سوسة، المرجع نفسه، ص 98.
34-باقر، المرجع السابق، ص 98
35-ما تقييق، المرجع السابق، ص 174.
36-لاحمدي، مرجع سابق، ص ص 168، 166.
37-سترابو، مصدر سبق ذكره، فقرة 8.
38-سوسة، المرجع السابق، ص ص 66، 67.
39-باقر، المرجع السابق، ص 66.
40-رشيد، محمد طالب، مجلة دراسات في التاريخ والاثار، ع0، 2021م، (تأثير التجارة على الامن الاقتصادي في بلاد الرافدين القديمة) قسم التاريخ، كلية الآداب-جامعة بغداد، ص 400.
41-باقر، المرجع السابق، ص 41.
42-صاحب، زهير، تقابل الحضارات-دراسة في الحضارتين العراقية والمصرية، دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر، 2016م، ص228.
43-كنجه جي، مرجع سابق، ص 43.
44-سوسة، مرجع سابق، 61.
45-باقر، المرجع السابق، ص66.
46-رشيد، المرجع السابق، ص 406.
47-باقر، المرجع السابق، ص66.
48-باقر، المرجع نفسه، 42.
49-, Frankfort Studies in Early Pottery of The Neas، p12,1924,London,Vol
50-كنجه جي، مرجع سابق، ص 17.
51-سليمان، عامر، العراق في التاريخ، د.ط، د.ن، ص ص 201، 202.
52-كنجه جي، المرجع السابق، ص 17، 18
53-جميس، هنري، مرجع سبق ذكره، ص159.
54-الجابر، وليد، حضارة العراق، ج2، 1985، د.ط، ص 240.
55-سليمان، مرجع سابق، ص 105، وعلي، فاضل عبد الواحد، تاريخ العراق، القديم، د.ط، 1993م، ص 96.
56-كنجه جي، مرجع سبق ذكره، ص 19
57.-كنجه جي، المرجع نفسه، ص ص 71-84.